طعنات الزمن

نهي شكر

خرج إياد من المتجر وهو يكاد يطير من الفرحة، لقد استطاع أخيرا أن يشتري القلادة التي أعجبت أمه، لكن ما كاد يقترب من منزله حتى رأى الكثير من الناس يركضون ويصرخون، والكثير من سيارات الشرطة والإسعاف منتشرة في المنطقة.. وعندما اقترب ليرى ما حدث رأى منزله وقد أصبح أنقاضا، فأخذ يركض في كل مكان لعله يجد أباه وأمه، لكن دون جدوى، فاندفع نحو الأنقاض يحاول أن يرفعها بيديه الصغيرتين بحثا عنهما، فجأة انشرح وجهه ببصيص من الأمل، فهو يرى من بعيد جزءا من رداء أمه، فأخذ يصرخ بالناس من حوله ليساعدوه في رفع الأنقاض عنها فهو يسمع أنينها، لكن الناس جذبوه بعيدا وهم يقولون إن هذا خطر عليه، فصرخ بكل قوته: إنها ما زالت حية، أنقذوها.. لكن صراخه ذهب هباءً، فلم يلتفت أحد إليه، فحاول الاقتراب مرة أخرى ليساعدها هو، لكنهم دفعوه بعيدا بقوة فانهار أرضا باكيا لا يعرف كيف يساعد أمه.. فأخذ يزحف ما بين الأقدام حتى وصل إلى رداء أمه وأخذ يجذبه بكل قوته، لكن جسده الصغير لم يعد يحتمل فسقط مغشيا عليه.

في اليوم التالي استيقظ ليجد نفسه مستلقيا على الفراش وتجلس بجانبه فتاة تبتسم له بحنان وقالت: «وأخيرا استيقظت! كيف حالك الآن؟»، قال بقلق: «أين أمي؟»، قالت وقد ارتسم الحزن والشفقة عليها: «معذرة يا صغيري، لكن أمك قد انتقلت إلى جوار ربها، فادعُ لها بالرحمة».. أخذ يبكي بحرقة، فقبلته وأخذته في حضنها تحاول أن تهدئه. وكانت للأسف هذه آخر

مرة يشعر فيها بالعطف والحب والحنان.

وبعد عدة أيام جاء أحد رجال الشرطة ليأخذ إياد ويسلمه لأحد الملاجئ، والملجأ إذا بحثت عن معناه فهو مكان تشعر فيه بالاستقرار والأمان، لكن ما ذهب إليه إياد كان جزءا من الجحيم على الأرض؛ فأطفاله قد أصبحوا هياكل متحركة، أما الذين يديرونه فآخر ما يمكن وصفهم به الإنسانية أو الرحمة، فقد كان الملجأ بالنسبة لهم رمزا للمال والثراء، لا للرحمة والعطاء، ودخل إياد بكل براءة دون أن يعرف أن بدخوله قد ودَّع الحياة.

ومضت الأيام، وتحول إياد إلى مجرد شبح يجوب أرجاء المكان، قد فقد لمعان عينيه، وأصبح وجهه شاحبا وجسده هزيلا كالعصا، وفي أحد الأيام في أثناء عملهم في المعمل التابع للملجأ شعر إياد بالإعياء الشديد، فتقدم من المسئول وقال له بكل براءة وضعف: «أرجوك دعني أسترح قليلا، فأنا لم أعد أقوى على العمل وأشعر بضعف شديد». «أجننت؟» ثم نظر له بتمعن ثم قال: «يبدو أنك متعب جدا، اقترب يا صغيري».. وما كاد يقترب حتى تلقى صفعة ألقت بجسده الهزيل أرضا، ثم تركه وذهب ليستدعي مدير الملجأ وأخبره بما حدث، ثم عادا معا إلى المعمل؛ حيث وجدا إياد ما زال ملقى أرضا وباقي الأطفال مستمرين في العمل دون أن يجرؤ أحد على مساعدته، فاقترب منه المدير وقال:

- قم واعتذر على ما فعلت أيها الفأر الهزيل.
- علامَ أعتذر؟ كل ما أردته هو الراحة لبعض الوقت.
- يبدو أنك تحتاج إلى الراحة بالفعل.

ثم ابتسم للمسئول وقال: «ونحن هنا من أجل راحتكم، أليس كذلك؟».. ثم اقتربا منه وباشرا بركله وضربه دون رحمة أو شفقة، وما زالا يركلانه حتى تعبا ثم نظر المدير إلى باقي الأطفال وهو يلهث: «أعتقد أن الجميع قد أخذ راحة بما فيه الكفاية» ثم خرج وصدى ضحكاته يتردد في المكان وكأنه ألقى دعابة مضحكة. قام المسئول بعد ذلك بجر إياد إلى غرفة باردة مظلمة

وألقى عليه ماء باردا وقال: «ابق هنا حتى الصباح» ثم أغلق الباب ورحل.
وفي صباح اليوم التالي ذهب كل من المسئول والمدير إلى إياد فوجدا وجهه قد أصبح شديد الشحوب وجسده متصلبا بعض الشيء، فدفعه المدير بشدة، فما كان من إياد إلا أن فتح عينيه بضعف ثم عاد وأغلقهما، فذُعر كل منهما وقال المسئول:

- يبدو أنه يحتضر، ماذا سنفعل الآن؟

- اذهب وأحضر كل متعلقاته، سوف نحرقها ونلقيه في الخارج، وبذلك لن يستطيع أحد أن يعاقبنا.

- لكن ألن تعتبر هذه جريمة؟

- سوف يموت على أي حال، لكن إذا مات هنا سوف يلقون باللوم علينا، فهل تقبل بأن تعاقب بسبب هذا الفأر؟

- بالطبع لا، سألحق بك في الخارج.

قام المدير بإلقاء إياد بالشارع دون أدنى شفقة، وعندما تراجع ليعود تشبث إياد بقدمه يرجوه ويتوسل إليه ألا يتركه في هذا البرد القارس، فلم يُعِره أي اهتمام ثم ركله بقوة ليبعده عنه.. ورحل دون أن يلتفت إلى أنَّاته الضعيفة ودموعه المنسابة على خديه.
وبعد ساعات قليلة فارق إياد الحياة وانتقل إلى جوار ربه؛ حيث سيجد مرة أخرى الحب والرحمة.. لكن هل يجب أن نبكي على رحيله، أم نبكي على ما أصبحنا عليه؟ فقلوبنا قد أصبحت تنبض من أجل البقاء لا أكثر.. لم نعد نعرف سوى الحقد والكراهية.. فهل هذه الحياة التي قُدر لنا أن نعيش فيها؟